

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجَاهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٧﴾ ﴿٨﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فانزل الله تعالى: ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى﴾. فليس الأمر كما رعمه المبطلون، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١). وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفضاء عبادته: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالي». إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي (٢). وقال قتادة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾ أن الله أنزل كتابه، وبعث رسوله رحمة، رحم بها عباده، ليتذكر ذاكر، ويتفجع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكتافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها. وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: تقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وإن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره. وقوله: ﴿وَإِنْ يُجَاهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات

(١) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧ / ١٠٠).

(٢) الطبراني في الكبير (٨٤ / ٢) (١٣٨١)، وقال الهيثمي في الزوائد (١ / ١٣١): «رجال موثقون».

العلا، الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. وقال الضحاك: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، واللّه يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: الذي أنزل القرآن عليك هو اللّه الذي لا إله إلا هو ذو الاسماء الحسنی والصفات العلا.

﴿وَهَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢٨﴾

من ههنا شرع، تبارك وتعالى، في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الاجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم ومار باهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأصل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقده بزند معه ليورى نارا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقده شيئاً، ولا يخرج منه شر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لاهله يشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٌ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصاص: ٢٩]، وهي: الجمر الذي معه لهب، ﴿تَلْكُم تَصْطَلُونَ﴾ [القصاص: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بقبس﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهدين الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال ابن عباس. وكانوا شاتين وصلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتيتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنْهَا نُودَى بِمُوسَى﴾ إِنَّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْقَدِينَ طُوًى ﴿٢٩﴾
 وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٣٠﴾ إِنَّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٣١﴾
 إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٣٢﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا
 وَأَتَّعَ هَوْنَهُ فَرَدَدَىٰ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا﴾ أي: النار واقترب منها ﴿نُودَى بِمُوسَى﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿نُودَى مِنْ شَاطِئِ الرَّوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصاص: ٣٠]، وقال هاعنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال سعيد بن جبیر: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وقيل: ليظا الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل. وقيل غير ذلك، واللّه أعلم. وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالرَّوَادِ الْمَقْدِسِ طُوًى﴾ [النارعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤] أي: على

جميع الناس من الموجودين في زمانه . وقوله : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُرْحَمِي ﴾ أي : اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وقوله : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ أي : وخذني وقم بعبادتي من غير شريك ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ قيل : معناه : صلِّ لتذكرني . وقيل : معناه : وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ما رواه الإمام أحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا ، فَلْيَصِلْهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ » (١) . وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنِ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا ، فَكَفَّرَتْهَا أَنْ يَصِلَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ » (٢) .

وقوله : ﴿ إِذْ السَّاعَةُ آتِيَةٌ ﴾ أي : قائمة لا محالة ، وكائنة لا بد منها . وقوله : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسي » ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً . وقال ابن عباس : لا أطلع عليها أحداً غيري . وقال السدي : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقال : ﴿ نَقَلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَشْرًا ﴾ [الاعراف : ١٨٧] أي : ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَنَجْزِيَنَّهُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ، أي : أقيما لا محالة ، لا جزى كل عامل بعمله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، و ﴿ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٦] . وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَأْ يُلْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ : المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي : لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملامه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أي : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ١١] .

﴿ وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَمُوسَى ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِرُ أُخْرَى ﴿ قَالَ أَلَيْسَ لِي مُوسَى قَالَتْهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَسَنَى ﴾ قَالَ حَذَاهَا وَلَا تَحَفَّ سَسْنَيْدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿

هذا برهان من الله تعالى لموسى ، عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للمعادة باهر ، دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل ، وقوله : ﴿ وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإنباذ له . وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي : أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ، فسترى ما نصنع بها الآن ، ﴿ وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ استفهام تقرير . ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي : اعتمد عليها في حال المشي ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ أي : أهرج بها الشجرة ليقط ورقها لترعاه غنمي . قال الإمام مالك : والهش : أن يضع الرجل المحجن في الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود ، فهذا الهش ، ولا يخيط .

(١) المسند (٣ / ١٨٤) ورواه مسلم (٦٨٤ / ٣١٦) .

(٢) البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤ / ٣١٤) .

وقوله: ﴿وَلِيَّ لَهَا مَا رَبُّ أُخْرَى﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك . وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ أى: صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هي نهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْفَى﴾ أى: تمشى وتضطرب. فكشف عن يده ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدا، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توکا بين الشمتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنَهَا فِي الْأُولَى﴾ أى: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ ﴿لِتُرِيَنَّ مِنْ آيَاتِنَا الْكُتُبَى﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿كَيْ نُنسِئَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذُكَّرَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ﴿

وهذا برهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهاتنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ﴾ [التقصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾: كفك تحت عضدك. وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ولهذا قال تعالى: ﴿لِتُرِيَنَّ مِنْ آيَاتِنَا الْكُتُبَى﴾.

وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرّجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبتقى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. ويسر لي أمري: ﴿هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. ويسر لي أمري: أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾. يقفهوا قولي: وذلك لما كان أصابه من اللغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن

الانبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿لَمَّا آتَاكُمْ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَوْجِبٌ لَكُمْ أَنْ تَدِينُوا بِالْإِسْلَامِ أُولَئِكَ هُمُ الْيَكَادِبُونَ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفتضح بالكلام. وقال ابن عباس: شكى موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردهاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفتضح به لسانه، فاتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى، عليه السلام، فى أمر خارجى عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال ابن عباس: نُبئ هارون ساعدت حين نبئ موسى، عليهما السلام. وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتي ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ كَثِيرًا. وَتَذَكَّرْ كَثِيرًا﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِئَاءَ بَصِيرًا﴾ أى: فى اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يُوْحَىٰ﴾ ﴿أَنْ أَنْزِلْنَاهُ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عُدُوٌّ لِي وَعُدُوٌّ لَهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَئِنْ نَبَخْتُ عَلَيْكَ عَيْنِي﴾ ﴿إِذْ تَسْتَشِي أَخْتُكَ فَقَوْلْ هَلْ أَذْكَرُكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملكه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله فى البحر - وهو النيل - وتمسكه إلى منزلها بجبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهجم ما ذكره الله عنها فى قوله: ﴿وَأَصْحَبُ فُؤَادٍ أُمِّ مُوسَىٰ فَارَاغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أى قدرأ مقدورا من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بنى إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بِأَخْذِهِ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أى: عند عدوك، جعلته يحبك ﴿وَلَئِنْ نَبَخْتُ عَلَيْكَ عَيْنِي﴾ قال أبو عمران الجوني: ترى بعين الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى أجمعه فى بيت الملك نعمم ويرف، غذاؤه عندهم غذاؤه الملك، فذلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَشِي أَخْتُكَ فَقَوْلْ هَلْ أَذْكَرُكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباهما، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فجأت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعنى: هل أدلكم على من ترضعه لكم بالاجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فمرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً

شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة اغنم واجزل.
وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي: عليك ﴿ وَقُلْتَ نَفْسًا ﴾ يعني:
القبلي ﴿ فَتَجَنَّبَكَ مِنَ النِّمَمِ ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً، حتى ورد
ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التمس: ٢٥]. وقوله:
﴿ وَقُلْنَا قُتِرْنَا ﴾ (١).

﴿ قَلَيْتَ سَيْنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَكْمُومِينَ ﴾ ﴿ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴾ ﴿ أَذْهَبَ
أَنْتَ وَأَخُوكَ بِتَأْتِيٍّ وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّكَ بِنْدَ ذِكْرِ
أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (٢)

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدين» فأراً من فرعون وملكه،
يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الاجل، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير ميعاد،
والامر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا
مُوسَى ﴾ قال مجاهد: أي: على موعد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة.

وقوله: ﴿ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴾ أي: اصطفتك واجتيتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء.
وروى البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي
اشقى الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه،
وأنزله عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحجج آدم
موسى» (٢).

وقوله: ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَهَانِي ﴾ أي: بحججتي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن
عباس: لا تبطأ. وقال: لا تَضْمَعُ. والمراد: أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل بذكران الله في حال
مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له. ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
طَغَىٰ ﴾ أي: تمرد وعتا وتجبّر على الله وعصاه ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّكَ بِنْدَ ذِكْرِ أَوْ يَخْشَى ﴾ هذه الآية فيها عبرة
عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر
ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، وأن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع
في النفوس وأبلغ والأجمع، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بِنْدَ ذِكْرِ أَوْ يَخْشَى ﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ أي:
يوجد طاعة من خشية ربه، فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (٣)

(١) ذكر الحافظ ابن كثير بعدد « حديث الفتون » الطويل، وعلّق الشيخ أحمد شاكر هنا بقوله: « حديث الفتون أشار إليه
المؤلف في تفسير الآية ٤٩ - ٥٠ من سورة البقرة تكلمنا عليه هناك وذكرنا أننا حذفناه ».

(٢) للبخاري (٤٧٣٦).

فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿١٦﴾ إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكئين إليه: ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَفْطِنَ ﴾ يعينان أن يبدل إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. ﴿ قَالَ لَا نَخَافُ إِيَّاكَ مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركما شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطنش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي.

وقوله: ﴿ فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى؛ ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يوثق الله أجرك مرتين»، وكذلك كتب رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ظَنَّ: ﴿ وَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْآخِرَىٰ ﴾ [التارعات ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ فَانذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا صَدْقَ وَلَا صُلَى . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أي: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿١٩﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه، قال: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ أي: الذى بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قال سعيد بن جبير: أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينفع له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الاعلى: ١٣] أي: قدر قدراً، وهدى الخلاق إلى، أي: كتب الاعمال والأجال والأرزاق، ثم الخلاق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليفة على ما أراد.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾: أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخيره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق وورق وقدر فهدي، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن صلهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمام، ﴿لَا يَهْدِي رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتربه نقصاناً لخدمته: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٣٠﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٣١﴾ وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٣٣﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقًا ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وفي قراءة بعضه: مهادا، أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَوَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّقَوْمٍ يَعْتَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾، أي: من ألوان النباتات من رزق، وشمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمُ﴾، أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لانعامكم لاوتها خضرا وياسا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾، أي: للدلالات وحججا وبراهين ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَانِ﴾، أي: للذري العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، أي: وإليها تصيرون إذا متم وبلبتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي﴾، يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره، فكذب بها وأباهها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا آيَاتِنَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤].

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٣٤﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ شَيْئًا وَلَا أَنْتَ مَكَلًّا سُوَّى ﴿٣٥﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ بِحِشْرِ النَّاسِ سُحُوبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جنت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرون بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يفرنك ما أنت فيه ﴿فَجَاعِلٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جنت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم وتورودهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الانبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُخْشِرَ النَّاسَ﴾ أى: جميعهم ﴿ضَحَى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الانبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح؛ ولهذا لم يقل «ليلة» ولكن نهاراً ضحى. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾: منصفاً. وقال السدى: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: مستر بين الناس وما فيه، لا يكون صوت ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستر حين يرى.

﴿فَتَوَكَّنَ فِرْعَوْنُ فَمَجَّعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ قَالَ لَهُم مُوسَى وَيَلَيْكُم لَّا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ أَفْرَى ﴿فَنَسَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ النَّهْلَ ﴿فَاجْعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى، عليه السلام، إلى وقت ومكان معينين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافعاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ اتَّقُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ١٧٩]. ثم أتى: أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له اكابر دولته، ووقفت الرعايا يمته ويسرة واقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَنْ لَّنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿الشعراء: ٤١، ٤٢﴾. ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيَلَيْكُم لَّا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إبداع أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ أَفْرَى﴾. فتنازعوا أمرهم بينهم قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أى: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فيتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَلْيَحْضُرْ بَطْرِيْقَتِكُمْ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجناكم من الأرض، ونفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياضة بها دونكم. وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُوا صَفَاً﴾ أى اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأَبصار، وتغلبوا هذا وإخاه ﴿وَقَدْ أَلْقَى الْيَوْمَ مِنَ اسْتِطْنِ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وَعَدْنَا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياضة العظيمة.

﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِيمَانًا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَىٰ فَإِنَّمَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْمَىٰ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فَالْقَى السَّحْرَةَ مُجَدًّا قَالُوا أَمَّا رَبِّي هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَلْقَى﴾ أى: أنت أولاً ﴿وَأِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾. قال بل ألقى. أى: أنتم أولاً ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم ﴿فَإِنَّمَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْمَى﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قَالُوا بَعْزُهُمْ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ظَالِمٌ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَرْتَفَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِنَّمَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْمَى﴾. وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسمى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمعاً كثيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصا وحبالاً، حتى صار الوادى ملآن حبات يركب بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ أى: خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرمهم ويغفروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الرائعة أن ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أى: عصاك، فإذا هى ﴿تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾ وذلك أنها صارت تَنبِتًا عظيمًا هائلًا، فجعلت تسبح تلك الجبال والعصى حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعتها، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك هيئاً جهورية، نهاراً ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقفوا ساجدين لله وقالوا: ﴿أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. رَبُّ مُوسَى وَهَرُونَ ﴿[الشعراء: ٤٧، ٤٨]. ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة. وفى آخر النهار شهداء برة.

﴿قَالَ أَمَّا نَسْتُمْ لِمَ قِيلَ أَنْ مَادَّنَ لَكُمْ إِنَّمَا لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلَيْتَكُمْ فِي جُدُوعٍ لِلتَّخَلُّفِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إِنَّمَا أَمَّا رَبَّنَا لَيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وتوعدهم، وقال ﴿أنتم له﴾ أى: صدقتموه ﴿قبل أن أذن لكم﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه على وعلى رعيتى، لتظهوره، كما قال فى الآية الاخرى: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ [الاعراف: ١١٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف وأصلبكم فى جذوع النخل﴾ أى: لاجعلنكم مثلة ولاقتلكنم ولاشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى﴾ أى أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿والذى فطرنا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت. ﴿فأفض ما أنت فأض﴾ أى: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ﴿إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ أى: إنما لك تسلط فى هذه الدار، وهى دار الزوال ونحن قد رغبتنا فى دار القرار ﴿إنما أنا برئنا ليعرف لنا خطايانا﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. وقوله: ﴿والله خير﴾ أى: خير لنا منك ﴿وأبقى﴾ أى: ادوم ثوابنا مما كنت وعدتنا وميتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿والله خير﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وأبقى﴾ أى: منك عذاباً إن عصى. وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأموراً شهداء.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْت رَبَّهُ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٢﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٣﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٤﴾﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرملى، ويرغبونه فى ثوابه الابدى المخلد، فقالوا: ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ كقوله: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك تجزي كل كفور﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿ويصحبها الأشقي. الذى يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ [الاعلى: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وتأدوا بما ملك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٧].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن في الشفاعة، فجاء بهم ضباط، ضباط، قُبُوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحية تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كان رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الأمانات، والمسكن الطيبات. وفي الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (٢).

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين أبدا، ﴿وَأُولَئِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: طهر نفسه من الدنس والحَبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جازوا به من خير وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۗ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أرى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورماتيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِقُونَ﴾ [الشراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتَوْهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشراء: ٦٠] أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا قَرَأَ فِي الصُّحُفِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۖ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا ۖ﴾ أي: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يعني: من البحر أن يفرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُرْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ فَفَشَلَا مَا غَشَىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأصلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْدَعَهمُ النَّارَ وَيَسُّ الِوْرَةَ الْمُرْوَدَةَ﴾ [مرد: ٩٨].

(٢) البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (١١/٢٨٣١).

(١) المسند (٥/٣) ومسلم (٣٠٦/١٨٥).

﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجَنَّاكُم مِّنَ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُم بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي
لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومنته الجسم، حيث نجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» ورواه مسلم (١). ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الايمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك وفي غُضُونِ ذلك عبد بنو إسرائيل المعجل، كما يقصه تعالى قريباً.

وأما المن والسوى، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «البقرة» (٢) وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله، ورحمةً بهم، وإحساناً إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى: كلوا من هذا الذى رزقكم، ولا تطفوا فى رزقى، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى: أغضب عليكم ﴿ وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَى ﴾ قال ابن عباس: أى: فقد شقى.

وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى: كل من تاب إلى تبت عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد المعجل من بنى إسرائيل.

وقوله: ﴿ تَابَ ﴾ أى: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية ﴿ وَأَمَنَ ﴾ أى: بقلبه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى: بجوارحه ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾: قال ابن عباس: أى ثم لم يشكك وقال سعيد بن جبير: ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ أى: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾

[البلد: ١٧]

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتُمَا فَكَذَلِكَ أَلْفَى

السَّامِرِيُّ ﴿٨٣﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَتَلْنَا فَأَنزَلْنَا عَلَىٰ مِثْلِهِ الْقُرْآنَ ﴿٨٤﴾ فَأَلَّا يَرْوُا إِلَٰهًا وَلَا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٥﴾

لما سار موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون، وأتوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَىٰ أَسْمَانِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الاعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشراً، فتمت أربعين ليلة، فسارع موسى، عليه السلام، مبادراً إلى الطور، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد عني رضا، ﴿قَالَ إِنَّا قَدْ قَتَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَوَّاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذْنَاهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ بِأَخَذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِبْتُمْ وَارِثِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٥] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحزن عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب بطلان وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانٌ أَسْفًا﴾ أي: جزعاً. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسْفًا﴾ أي: حزينا على ما صنع قومه من بعده. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلِمْتُمْ بِدِينِكُمْ وَعَدَابِ اللَّهِ﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من إباديه عندكم؟ ﴿أَفَتُلِغُوا عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ﴾ ، أي: في انتظار ما وعدكم الله. ونيان ما سلف من نعمه ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعودوا إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَقْتُمْ مُّؤَعَّدِي . قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أتاهم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مُّؤَعَّدِي بِمَلَكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتفرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي: القيناها عنا. ثم جاء ذلك السامري فالتقى عليها تلك القبيضة التي أخذها من أثر الرسول، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ﴾ . ﴿قَالُوا﴾ أي: الضلال منهم، الذين افتتروا بالعجل وعبدوه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَتَلْنَا﴾ أي: نسيه هاهنا، وذهب يطلبه. وبه قال مجاهد. وقال سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَتَلْنَا﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم: وقال ابن عباس: ﴿فَقَالُوا﴾: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ ، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام. يعني: السامري. قال الله تعالى رداً عليهم، وتقرباً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرْوُا أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرْوُا﴾ أنه لا يجيبهم إذا

سألوه، ولا إذا خاطبوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ حُرًّا وَلَا مُنْقَرًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى آخراهم. قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فآلقوها عنهم، وعبدوا المعجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعنى: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضى الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعنى: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟ (١).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿١٠١﴾﴾
قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عما كان من نهى هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة المعجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَأَنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أى: فيما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون فى ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٠٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿١٠٤﴾﴾ قَالَ يَبْنَونُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٠٥﴾﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلا عند ذلك غضباً، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قلنا فى «الاعراف» بسط ذلك. وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخلفني فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الاعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ يَهْنَونُ﴾: ترقق له بذكر الام مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الام هائنا ارق وأبلغ فى الخنو والمطف؛ ولهذا قال: ﴿يَهْنَونُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم ﴿قَالَ إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائياً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْئِرُ﴾ ﴿١٠٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٠٧﴾﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٠٨﴾﴾

أَلَيْسَ نَسْفًا ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٠٠﴾

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿فَبَدَّتْهَا﴾ أي: ألقيتها مع من الرقى، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذت ومسّت ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا إن تقول: لا ماس، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَنْ نُخَلِّفَهُ﴾ أي: لا محيد لك عنه. وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقيامهم اليوم يقولون: لا ماس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخَلِّفَهُ﴾ قال الحسن، وقاتدة، وأبو نعيم: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَإِنظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أي: معبودك ﴿الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ سَكَنًا﴾ أي: أقمت على عبادته، يعنى: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَوْمِ نَسْفًا﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبئ العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد لربه. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: هو عالم بكل شيء ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢)، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عِنْدًا﴾ (الجن: ٢٨)، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿(سبا: ٣)، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الانعام: ٥٩)، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْعِمَهَا وَاسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (مرد: ١٦) والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٢﴾ خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والامر الواقع، كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (نصفت: ٤٢)، الذى لم يعط نبى من الانبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى في غيره. فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي: إنمّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ (مرد: ١٧). وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَأَنْذَرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الانعام: ١٩). فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقى في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ خالد بن

فيه ﴿ اى : لا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاكِ ﴾ و«سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا» اى : بنس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ يَنْحَفَتُونَ يَبْتَنُّهُمْ اِنْ لَبِثْتُمْ اِلَّا عَشْرًا ﴿ تَحْنُ اَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ اِذْ يَقُولُ اَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً اِنْ لَبِثْتُمْ اِلَّا يَوْمًا ﴾ ﴿

ثبت فى الحديث ان رسول الله ﷺ سئل عن الصُّور، فقال: « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » (١) . وجاء فى الحديث : «كيف انعمُ وصاحب القرنُ قد التقم القرنُ، وحنى جبهته، وانتظر ان يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله تولكنا» (٢) .

وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ قيل : معناه زُرُقُ العيون من شدة ما هم فيه من الاهوال ﴿ يَنْحَفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ : قال ابن عباس : يتسارون بينهم، اى : يقول بعضهم لبعض : ﴿ اِنْ لَبِثْتُمْ اِلَّا عَشْرًا ﴾ اى : فى الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة ايام او نحوها .

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ اى : فى حال تاجيهم بينهم ﴿ اِذْ يَقُولُ اَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ اى : العاقل الكامل فيهم ﴿ اِنْ لَبِثْتُمْ اِلَّا يَوْمًا ﴾ اى : لقصر مدة الدنيا فى انفسهم يوم المعاد؛ لان الدنيا كلها وان تكررت اوقاتها وتعاقت ليالها وايامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة .

وكان غرضهم فى ذلك دره قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ اى قوله : ﴿ فِهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى : ﴿ اَوْ لَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذُرُكُمْ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ لَكُمْ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ الآية [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْاَرْضِ عَدَّةَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاَسْأَلُ الْعَادِينَ . قَالَ اِنْ لَبِثْتُمْ اِلَّا قَلِيلًا لَوْ اَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] اى : انما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لا تترتم الباقى على الفانى، ولكن تصرفتم فاستم التصرف، قَدَّمْتُمْ الحاضر الفانى على الدائم الباقى .

﴿ وَاسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا اَمْتًا ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ اِلَّا عِوَجًا لَمْ يَخْشَعَتِ الْاَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ اِلَّا هَمْسًا ﴿

يقول تعالى : ﴿ و«سألونك عن الجبال» اى : هل تبقى يوم القيامة او تزول ؟ ﴿ فقل ينسفها ربي نسفا ﴾ اى : يذهبها عن اماكنها ومحققها وسيرها تسييراً ﴿ فيذرها ﴾ اى : الارض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ اى : بساطاً واحداً . والقاع : هو المستوى من الارض . والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل : الذى لا نبات فيه . والاول اولى، وان كان الآخر مراداً ايضاً باللازم؛ ولهذا قال : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً ﴾ اى : لا ترى فى الارض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف .

(١) المسند (٦٥٠٧ ، ٦٨٠٥) وقال الشيخ احمد شاکر : « اسناده صحيح » .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الانعام .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾. أى: يوم يرون هذه الاحوال والاهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادرُوا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا يتفهمهم، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأُفْعِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا ﴾ [مریم: ٣٨]، وقال: ﴿ مُهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ [القمَر: ٨]. وقال محمد بن كعب القُرظى: يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة، ويطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾. وقال قتادة: ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يميلون عنه.

وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾: قال ابن عباس: سكتت، وكذا قال السدى.

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: قال ابن عباس: الصوت الخفى. وقال سعيد بن جبیر: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. أما وطفه الأقدام فالمراد سعى الناس إلى للحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع. وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفُهٌ وَغَبِيحٌ ﴾ [مرد: ١٠٥].

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴾ ﴿ عَلِمًا ﴾ ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أى: عند ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ كقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ وَرَكْمٌ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنِ بَدَأَ إِنْ أَذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضِي ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الانبيا: ٢٨] وقال: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل انه قال: «أتى تحت العرش، وأخر لله ساجدا، وفتح على بحامد لا أحصياها الآن، فیدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع». قال: «فيحد لى حدا، فأدخلهم الجنة، ثم أهود(١)، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء.

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أى: يحيط علما بالخلائق كلهم ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴾ كقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت، القيوم، الذى لا ينام، وهو قيم على كل شىء، يديره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شىء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أى: يوم القيامة، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القراء. وفى الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢). والحية كل الحية لمن لقى الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَنْعَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ : لا ذكر الظالمين ووعيدهم، نسي بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أى: لا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا، بلسان عربى مبين فصيح، لا ليس فيه ولا عى ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تنزهه وتقديس الملك الحق، الذى هو حق، ووعدده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى الأ يعذب أحدا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لتلا يبقى لاحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كقوله تعالى فى سورة: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ : ﴿لَا تُعْرِكَ بِهٖ لِسَانِكَ لِتَجْعَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قُرْآنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، وثبت فى الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فانزل الله هذه الآية (١). يعنى: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف فى حقه؛ لتلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُعْرِكَ بِهٖ لِسَانِكَ لِتَجْعَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أى: أن نجتمع فى صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا، ﴿فَإِذَا قُرْآنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال فى هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أى: زدنى منك علما.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا وَإِلَىٰ عَادَمٍ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحِدْ لَهُ عَزْمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۖ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشقى ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا جَمُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمَلَكَ لَا يَبْلُ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَمَّا سَوَاءَ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ عَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۖ ثُمَّ آجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ﴾

قال ابن ابى حاتم عن ابن عباس: إنما سعى الإنسان لانه عهد إليه فنسى. وكذا رواه على بن ابى طلحة، عنه. وقال مجاهد والحسن: ترك.

وقوله: ﴿وَادْعُوا لِمَلَكَةِ اسْمُجُودَا لَادَمَ﴾: يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير من خلق تفضيلاً. وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الاعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف»، وسيأتي في آخر سورة «ص». يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشریفاً وتكريماً، وبين عداوة إبليس لبني آدم ولايهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجُدُوا لِإِبْلِيسَ أَبِي﴾ أي: امتنع واستكبر ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ﴾ يعني: حواء، عليهما السلام ﴿فَلَا يَخْرُجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلْتَجْرِعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾: إنما قرن بين الجوع والعرى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر ﴿وَأَنْتَ لَا تَقْطَعُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظلم: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾: قد تقدم أنه ﴿دلأهما بفرور﴾ [الاعراف: ٢٢] ﴿وَقَامَسَهُمَا إِيَّيْهِمَا لَكُمَا نَجَاتٌ مِّنَ النَّاصِعِينَ﴾ [الاعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكته. وقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لُهُمَا سُوْرَاتُهُمَا وَظَفَا بِخُصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدى.

وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بدينك واشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتولمنى على امر قد كتبه الله على قبل ان يخلقنى - أو: قدره الله على قبل ان يخلقنى» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»^(١).

﴿قَالَ أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَبَتِكُمْ مِمَّنِ هَدَىٰ فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسئُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة «البقرة» ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَا أَبَتِكُمْ مِمَّنِ هَدَىٰ﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرى﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداية ﴿إِنَّمَا لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ أى: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق

حَرَجَ لَضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرَهُ، وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنْ قَلِبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى، فَهُوَ فِي قَلْقٍ وَحَيْرَةٍ وَشُكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيْبَةٍ يَتَرَدَّدُ. فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيْشَةِ. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَعِيْشَةٌ ضَنْكًا﴾ قَالَ: يَضِيْقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا﴾ قَالَ: «ضَمَّةُ الْقَبْرِ». الْمَوْقُوفُ صَاحِبُ.

وقوله: ﴿وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: قَالَ مَجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالسُّدِّيُّ: لَا حُجَّةَ لَهُ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: عَمَى عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَنَّهُ يُحْشَرُ أَوْ يَبْعَثُ إِلَى النَّارِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةَ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عَمْيًا وَنَبْخًا وَسُمْئًا مَا وَأُوهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٩٧]. وَلِهَذَا يَقُولُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَهْلَكَ نَارَافًا فَسَبَّهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْفَى﴾ أَيْ: لَمَّا أَعْرَضْتَ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ، وَعَامَلْتَهَا مَعَامَلَةً مِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا، بَعْدَ بِلَاغِهَا إِلَيْكَ تَنَاسَيْتَهَا وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا وَأَغْفَلْتَهَا، كَذَلِكَ تَعَامَلْتَ الْيَوْمَ مَعَامَلَةً مِنْ نَسِيكَ ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الْأَحْرَافُ: ٥١] فَإِنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. فَأَمَّا نَسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فِهْمِ مَعْنَاهُ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ، فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

يقول تعالى: وهكذا نجازى المفسرين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ أَيْ: أَشَدُّ الْمَا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَأَدْوَمُ عَلَيْهِمْ، فَهَمْ مَخْلُدُونَ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِعِينَ: «إِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ».

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِكَانَ لِرِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لِهَوْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِمَا جَبَّتْهُمُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأَسْمِ الْمَكْذِبِينَ بِالرَّسْلِ قَبْلَهُمْ، فَبَادُوا فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا آثَرٌ، كَمَا يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْخَالِيَةَ الَّتِي خَلَقُوهُمْ فِيهَا، يَمْشُونَ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ أَيْ: الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَلْيَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَفْهَمُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا لِإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْمِج: ٤٦]، وَقَالَ فِي سُورَةِ «الْمِ السَّجْدَةِ»: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ﴾ [السَّجْدَةُ: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِكَانَ لِرِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَعْذِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَوْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ

إلى مدة معينة، لجأهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنيه مسلماً له: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ أى: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجليّ، رضى الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم الا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية (١). وروى الإمام أحمد عن عمارة بن رُوَيْبَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلْجَأَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». رواه مسلم (٢).

وقوله: ﴿وَمِنَ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتعبد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ فى مقابلة آتاء الليل ﴿فَعَلِمْتَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ قَرْضًا﴾ [الضحى: ٥]. وفى الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضىتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (٣). وفى الحديث: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه». فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى الزيادة» (٤).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا لَّحْنُ رِزْقِكَ وَالْعَقِيْبَةُ لِلأَقْوَىٰ﴾

يقول تعالى لنيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظراتهم، وما هم فيه من النعم، فإنما هو زهرة رائقة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعنى: الاغنياء، فقد أتاك الله خيراً مما أتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الثَّمَانِيَةِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدِّدُ ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ قَرْضًا﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، قرأه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عيننا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: «مايكيك؟» فقال: يارسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفة الله من خلقه؟ فقال: «أو فى شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت طيباتهم فى حياتهم الدنيا» (٥).

فكان، صلوات الله وسلامه عليه، أهدى الناس فى الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، فى عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد. فمن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله من زهرة الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يارسول الله؟ قال:

(٢) المسند (١٣٦/٤) ومسلم (٢١٣/٦٣٤).

(١) البخارى (٥٥٤) ومسلم (٢١١/٦٣٣).

(٥) البخارى (٤٩١٣).

(٤) مسلم (٢٩٧/١٨١).

(٣) البخارى (٦٥٤٩).

«بركات الارض» (١) ﴿لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾: لتبليهم .

وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أى: استتقدهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَعْلَيْكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. وقوله: ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ﴾ يعنى: إذا أتمت الصلاة أنك الرزق من حيث لا تحسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ﴾، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا﴾ أى: لا نكلفك الطلب. وقد روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لبيادتي أملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك» (٢). وروى ابن ماجه عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الهمومَ مَما واحداً، هَمَّ المعاد، كَفاه اللهُ هَمَّ دنياه. ومن تشبعت به الهموم فى احوال الدنيا، لم يبال اللهُ فى أى أوديته هلك» (٣). وروى أيضاً عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأنه من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه فى قلبه، وآتته الدنيا وهى راعمة» (٤).

﴿وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أى: وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وهى الجنة، لمن اتقى الله. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رايت الليلة كأننا فى دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب» (٥).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا أَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ. لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَى ﴿١٠٧﴾ قُلْ كُلُّ مَرِيضٍ فَرَّصِصًا فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار فى قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أى: هلا ﴿يأتينا﴾ محمد ﴿بآية من ربه﴾ أى: بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أولم تأتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعنى: القرآن العظيم الذى أنزله عليه وهو أمى، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم فى سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا لَقَدْ إِتْمَعْنَا الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرُحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [التكوير: ٥٠، ٥١] وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) البخارى (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢/١-١٢١) بنحوه .

(٢) الترمذى (٢٤٦٦) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، ابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الألبانى .

(٣) ابن ماجه (٤١٠٦) وقال الألبانى : « حسن » .

(٤) ابن ماجه (٤١٠٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٧٧) : « هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات » وصححه الألبانى .

(٥) مسلم (١٨/٢٢٧٠) .

«ما من نبي إلا وقد أتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١). وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيتها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، كما هو مقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿١٣٥﴾ أَيْ: لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكذِبِينَ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ، وَنُنزِلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ لَكَانُوا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿١٣٤﴾ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكَنَا، حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ؟ كَمَا قَالَ: ﴿فَنُفِخَ فِي سُورَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَقُولَ وَنَهْزَى﴾، يَبِينُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَكذِبِينَ مَتَعْتُونَ مَعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَآرِكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وَقَالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنْ إِهْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] وَقَالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ ﴿كُلُّ مُرْتَبِعٍ﴾ أَيْ: مَنَا وَمِنْكُمْ ﴿فَتَرْتَبِصُوا﴾ أَيْ: فَانْتَظِرُوا ﴿فَنُصَلِّمُونَ مِّنْ أَصْحَابِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أَيْ: الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿وَمِنْ أَهْدَىٰ﴾ إِلَى الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرَّشَادِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وَقَالَ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشْرَارِ﴾ [القم: ٢٦].